من البلاد الانكليزية ومستعمراتها ٢١٧ مليون طن اي ٣٨ في المئة مما استخرج من المسكونة كلها واذا اضيف الى ذلك ما استخرج من الولايات المتحدة الاميركية وهو ١٨٨ مليون طن ظهر ان سبعة اعشار الفحم الحجري يستخرجه الشعب المتكلم باللغة الانكليزية والثلاثة الاعشار الباقية يستخرجها بقية الناس

العمران في غربي السودان

كتب القائمون روبنسن مقالة مسهبة في هذا الموضوع في مجلة القرن التاسع عشر وصف فيها مدينة كنو والبلاد المجاورة لها وهي غربي بلاد السودان على ١٦٠٠ ميل من الخرطوم وقال انها اوسع مدن افريقية ولا يفوقها في عدد السكان الا مدينة القاهرة وسوقها اعظم سوق في الدنيا وهي مركز عمران الزنوج يحضر سوقها كل يوم ثلاثون الف نفس يبيعون ويشترون وقد جروا على ذلك منذ الف سنة فاكثر

وثلثا السكان من شعب الهوسوة والبقية من القلاتة ويتردد على سوقها كثيرون من التوارك[1] ونفر قليل من العرب واليهود والمغاربة يجلبون اليها البضائع المختلفة وينقلونها منها الى سائر الجهات الافريقية . واكثر تجارتها في المنسوجات وهي من حياكة اهلها وبها يكتسي نصف سكان السودان المتوسط . والسكان يزرعون القطن ويغزلونه وينسجونه ويصبغونه بالنيل او بصبغ احمر يستخرجونه من لحاء نوع من الشجر . وتبلغ هذه المنسوجات القطر المصري وكل مدن افريقية . ويدبغون الجلود ويصنعون منها الاحذية ويرسلون بها الى الاطراف البعيدة وعندهم الحاج ويعيش النعام وجوز الكولا وله تجارة واسعة

ولغة الهوسوة مكتوبة وهي اللغة الوحيدة المكتوبة من لغات افريقية شمالي خط الاستواء عدا العربية والحبشية وحروفها تقارب الحروف العربية وثم فيها تواريخ وقصص ودواوين . وقد طبع ديوان منها في بلاد الانكليز حديثاً وفيه ست قصائد بعضها ديني وبعضها سياسي والقصيدة الاخيرة منها تصف الحياة بعد الموت والعقاب الحق للاشرار ومنهم السماسرة الذين يكسبون كسباً غير حلال والذين يدخرون الاموال والذين يستحلون السرقة والذين يثقون بالناس فان هؤلاء كلهم نصيبهم النار ذات السعير تلتهم ابدانهم و ملائكة تنفخها بالنافخ لتزيدها سعيراً . وجزاء الصالحين جنات النعيم . ثم يرتقي الشاعر فوق ذلك ويقول ان الصالحين

(١) التوارك طوائف البربر التي ابعدت من وجه العرب ونزلت الصحراء وامتزجت بالزنوج

يظهرون في ملك الله المجيد فيلبسون السماء ولذتها لانهم يتمتعون برؤية الله

وقد وُصف الجهل في قصيدة أخرى وصفاً بديعاً حيث قيل ما ترجمته "ان ابن الجاهل وحش احمق يرد المهالك ولا يعلم شيئاً . ابن الجاهل جثة قبل موته وباطل كل ما يفعله في الدنيا . الجاهل يقول ان العالم طفل غرٌّ والحكيم يقول ان العالم شيخ مجرَّب . الحكيم صديق مخلص يرينا سبل الحياة . شرُّ الجاهل يودي به ولا استواء في عذاب الجحيم"

ومقام المرأة رفيع عند الهوسيّة لا يحط عن مقام زوجها ومن اشعارهم في ذلك ما ترجمته "لا يليق بالنساء ان يعملن في الغيطان فان لم يكن عندك خادم يملأ الماء لزوجتك فاذهب معها الى المستقى في الماء

من سأكن امرأة ولم يتزوج بها اورده الله موارد الهلاك

اذا احبت امرأة رجلين فلهما الخسران في العالم العتيد ويبعثان يوم القيامة في اجسام الكلاب"

ومما قالوه في وجوب التوبة والبعد عن المنكرات ما ترجمته

"تب واترك الكبرياء والاضرار بالناس وسرقة الاموال . عدَّ ودَعك [1] واترك الكذب تب الى الله ولكن ليس توبة الثعور فانه يتوب والعصفور في فيه

من يتب توبة الثعور لا ينل الا الشرَّ — اضرب بالسياط والرسف بالسلاسل

من يتب فليتب الآن . احترس لئلا يُقفل الباب ومن كان خارجاً يُمنع من الدخول"

وقالوا في طرح الكسل ما ترجمته

"قم وقُم . قُم واجتهد صلِّ واشكرْ واستغث

لا تنم نوم الجاهل احذر فانه يتململ ويتمرَّغ كالخلة . تشرق الشمس ولا يخرج من بيته في البيت مدفن قوته"

واعتقادهم باليهود باطل ومن اقوالهم في ذلك "ابن الشرير رفيق الوثني واخو اليهودي . ابعد عن هؤلاء كلهم يأتي اليوم الذي يلاقون فيه ربهم"

ومن حكمهم الدينية قولهم

"الحياة الدنيا زمن الزرع للحياة الاخرى كل الذين يزرعون الاعمال الصالحة يدخلون المدينة العظيمة

من يطلب الدنيا يخسر الأخرى يقبض على ودعة واحدة ويخسر العين

---

(١) الودع صدف بحري معروف يتعامل به بعض اهالي افريقية بدل النقود

طاليس وتيمندُ الكسندريون من وضع رسم الخرائط وازال بعض الاوهام وذلك في القرن السابع قبل المسيح كما سيجيء

ثم نشأ هيرودوتس ابو التاريخ وابو الجغرافية فوصف الممالك التي رآها في اسفاره الشاسعة وهي تشمل بلداناً طولها من الشرق الى الغرب الف وستمئة ميل وعرضها من الشمال الى الجنوب الف وستمئة وستون ميلاً فضمَّن تاريخهُ المشهور كل ما كان يُعلم عن سطح الارض في عصرهِ . وكان المظنون حينئذٍ ان الارض تنتهي جنوباً بالاوقيانوس الهندسي وغرباً بالاتلنتيكي وشرقاً باطراف بلاد الفرس الشرقية وشمالاً ببلاد الكهرباء التي بلغها الفينيقيون في بحر بلطيك

ثم قام الاسكندر المكدوني ودوَّخ بلاد المشرق وبلغ بلاد الهند وبعث بالعلماء يجوبون الاقطار القاصية ويجمعون لهُ اخبارها ونوادرها وكل غريب فيها حيواناً كان او نباتاً فكانت غزواتهُ السياسية مشفوعة بمعاشات عملية اتسع بها نطاق المعارف الطبيعية والجغرافية

ولما كان الاسكندر يخترق آفاق المشرق كان فيلياس المرسيلي الفينيقي يمخر بحار المغرب فدار حول اسبانيا وغاليا واجتاز بريطانيا ودخل الاوقيانوس الشمالي وبلغ جزيرة ثولى التي يظن انها ايسلندا . قال ابو الفدا انها على نهاية العمور في الشمال

هذا من حيث المعارف الجغرافية عند الاقدمين بنوع عام اما تخطيط البلدان او رسم الخرائط فاقدم من ذلك كثيراً واول خريطة وصلت الينا من الاقدمين خريطة مصرية قديمة رُسمت في عيد رعمسيس الثاني على ما يظن وهي الآن في متحف تورين وفيها رسم وادي الايكة حيث كانت مناجم الذهب في بلاد النوبة . والبلاد جبال قاحلة ومفاوز شحرة يهلك فيها الانسان والحيوان في السير الى تلك المناجم . وفي الخريطة رسم الشعاب والصخور وقد أُعلمت الجبال التي وجد الذهب فيها بحبر احمر . وفيها ايضاً اشارات الى الآبار التي في الطريق والمباني والمرافق المنشأة بقرب المناجم والطرق الممتدة الى البحر ولم يترك شيء في ذلك المكان الا رسم في تلك الخريطة . ومن هذا القبيل خريطة اخرى فيها رسم بحيرة الفيوم والمدن والهياكل التي حولها

ووجدت خريطة بابلية قديمة رُسمت فيها مدينة سوسه واسوارها وحصونها وقصر الملك الذي فيها وساحة المدينة في وسطها يحيط بها رواق من ثلاث جهات ورستاق المدينة حولها فيه اشجار النخيل والمباني منتشرة فيه الى ضفة النهر . والمظنون ان هذه الخريطة صُنعت في القرن السابع قبل المسيح

ولكن الخرائط البابلية والخرائط المصرية كانت قاصرة على رسم ما في بابل ومصر ولم تجاوز

الى البلاد القاصية ولا بعد ان يكون الفينيقيون قد سبقوا غيرهم الى رسم الخرائط الكبيرة التي ترشد البحارة في سلك البحار لكن لم يصل الينا شيء منها. واول مَن صنع خريطة تشمل المسكونة كلها في ما يعلم الامة اليونانية فقد ذكر سترابون المؤرخ ان الكسندر الذي ولد سنة ٣٥٦ قبل المسيح صنع خريطة رسم فيها المسكونة كلها. وقال ديوجنس لارتس عنه انهُ اول من صنع الخرائط والموازين الساعات الشمسية ... ما يزال فقد رجع الدكتور دالي انها نقلت الى بلاد اليونان من بلاد الكلدان. وقال هيرودوتس انهُ لما ذهب ارستاغورس الى كليومينس ملك اسبرطة سنة ٥٠٤ قبل المسيح ليحمله على غزو بلاد الفرس اراهُ صفيحة من النحاس عليها رسم دائرة الارض بكل بحارها وانهارها

ويقال ان هكتاتيوس الذي كان معاصرًا للاكسندر اصلح الخريطة التي رسمها الكسندر بعد ان جاب الاقطار وكتب رحلتهُ في كتابين جغرافيين بقي الناس يعتمدون عليهما قرونًا كثيرة بعدهُ

وكان الناس الى ذلك الحين يعتقدون ان الارض مستطيلة من الشرق الى الغرب وتحتها تيه هوين عرَّفهُ الشعر ليلاً وهو الجحيم طرطاروس اسكن ارواح الاشرار. ووراء اعمدة هرقل (جبل طارق) من ناحية الغرب خلائق غريبة الاشكال والى شمالها باب الجحيم ووراءهُ في جهة الغرب بعد طرف الارض اقطار الفردوس بلاد سيفا دائم ونسيمها لا ينقطع هناك تسكن نفوس المدين ارتضتهم الآلهة وهناك جنات فيها تفاح ذهبي. والى الشمال والشمال الشرقي الشماريون المقيمون في ظلمة دائمة والطيربوريان[1] الذين لا يدعون ولا يمرضون بل يعيش الواحد منهم الف سنة في نعيم مقيم

الاَّ ان طاليس الحكيم قال قبل ذلك بكروية الارض وبأن دائرة البروج غير موازية لخط الاستواء بل مائلة عليها وقسم الارض الى خمس مناطق او خمسة اقاليم. وتبعهُ اكسندر وقال بكروية الارض ايضًا ويقال انهُ صنع كرة تمثلها. وجاء فيثاغورس بعدهُ ولم يكتف بكروية الارض بل قال انها تدور حول الشمس لكنهُ كان يعلّم بذلك سرًّا واذا تكلَّم جهارًا قال ان الشمس تدور حول الارض مخافة ان يكذبهُ الجمهور ويكفروهُ

ثم سافر فيثاغورس المرمري شمالاً فبلغ جزيرة اسلندا كما تقدَّم ويقال انهُ اول مَن نسبه الى حساب العرض فانهُ رأى ان المزولة يختلف طولاً في وقت معلوم باختلاف البعد عن

---

[1] الشماريون نسبة الى الشماري اقوام يزعم انهم يسكنون كهفًا مظلمًا والطيربوريان من هيبر وراء وبوريا ان وربعة اي الساكنون عند البلاد التي تهب فيها الرياح

حيث لا طهارة لا صلاة وحيث لا صلاة لا شرب من ماء السماء

الدنيا غرفة لعدٍّ فيه خيوط السدى واللحمة لاجل الحياكة

جزاء الانسان في الحياة الدنيا على حسب اعماله واعماله تتبعه الى الحياة الاخرى

اختر بين الام وابنتها لانك لا تستطيع ان تتزوج الاثنتين معًا. وهكذا الدنيا والأخرى لا تجتمع بينهما بحال فاختر الفضلى لنفسك

اترك الشر فان تركه تهذيب للنفس

من يعلم ولا يعمل ماذا يكون جوابه في اليوم الاخير

من يطلب قلبه يطرده كما يطرد مجل الحصاد

لو كنت بين الدنيا وتهايئي فيها لما صليت ولا توضأت

اليكم يا خوتي عن الدنيا فان طالب الدنيا لا يعبد الله

امامنا سفر طويل لا بدَّ منه سواء اخذنا الاهبة او لم نأخذ

ما تملكه ليس لك خذ الاهبة لاخراك قبل اولاك

فهذه الاشعار الحكمية وامثالها تدل على ذكاء الهوسة وواسع خبرتهم وحسن تديُّنهم وروائع آدابهم. وعندهم مدارس ومعلمون في كل بلادهم وفي مدينة كنو وحدها اربعون مدرسة يتعلم فيها التلامذة القراءة والكتابة بلغتهم وشيئًا من اللغة العربية

ولغة الهوسة شبيهة باللغات الساميَّة والظاهر ان هذه المشابهة قديمة وجدت قبل دخول الاسلام الى تلك البلاد وقبل دخول اللغة العربية. ويقول الهوسة ان اسلافهم الاقدمين اتوا من اقصى بلاد المشرق. وبين لغتهم ولغة التوارك مشابهة كما بين هذه وبين اللغة القبطية. فاذا ثبت ان اللغات الثلاث متشابهة فذلك دليل على انها كلها من اصل واحد وعلى ان اسلاف هؤلاء هاجروا اصلاً من بلاد العرب. وقد اخذت الحكومة الانكليزية تهتم بامر هذه اللغة لان المتكلمين بها في البلاد التي في منطقة النفوذ البريطاني يبلغون خمسة عشر مليونًا ولا بدَّ من ان تتوحد لغات افريقية يومًا ما اي يموت الضعيف منها ويخلفه القوي فيبقى اربع لغات فقط وهن العربية في العثمان والانكليزية في الجنوب والسواحلية في الشرق والهوسية في الغرب. والآن اذا عرف واحد لغة الهوسة امكنه ان يخترق افريقية من الغرب الى الشرق فيجد حيثما حلَّ سائلاً يتكلم معهم من تجار الهوسة او حجاجهم

هذه خلاصة ما اوردهُ الفاتون رو بنصه ثم اورد كلامًا آخر لا بدَّ لهُ في المقتطف